المحاضرة الثالثة: تاريخ علم توجيه القراءات

مقياس: توجيه القراءات

ماستر 1 التفسير وعلوم القرآن

مقياس: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية

ماستر 2 إعجاز ودراسات بيانية

الأستاذ فتحي بودفلة

f.boudefla@univ-alger.dz

fethinew@gmail.com

عناصر المحاضرة:

المرحلة الأولى: البدايات الأولى لتوجيه القراءات

1. التوجيه على عهد الصحابة رضي الله عنهم
2. التوجيه على عهد التابعين والأئمة

المرحلة الثانية: التوجيه قبل استقلاله بالتأليف

أولا: أهم العوامل والأسباب وراء نشأة علم توجيه القراءات

1. ظاهرة الاختيار وأثرها في التوجيه

- كلمة موجزة عن الاختيار، تعريفها وشروطها، وملازمة التوجيه لظاهرة الاختيار

2. ظهور علوم العربية وأثرها في توجيه القراءات
3. الطعن في القراءات وثره في توجيه القراءات

ثانيا: نماذج من اشتغال القراء بتوجيه القراءات خلال هذه المرحلة

ثالثا: توجيه القراءات كمباحث ومسائل متفرقة في مصنفات مختلف العلوم والفنون

1. كتب اللغة: العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، الكتاب لسيبويه (180هـ)

2. كتب معاني القرآن المختلفة

3. كتب التفسير:

4. الإمام ابن جرير الطبري (310هـ)

5. كتب القراءات : السبعة لابن مجاهد (324هـ)

المرحلة الثالثة: استقلال توجيه القراءات بالتصنيف

نصّ المحاضرة:

المرحلة الأولى: البدايات الأولى لتوجيه القراءات

التوجيه على عهد الصحابة رضي الله عنهم:

بدأت بواكير توجيه القراءات بالاعتبارات المتقدّمة في تعريفه على عهد الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنّ دوافعه ودواعيه كانت متوفرة، كمثل اختيار[1] بعضهم لحرف دون آخر مصحوبا بتعليل وتفسير يبيّنون به وجه اختيارهم وحجّته ، كما أنّ الطعن في بعض أحرفِ القرآن وقراءاته قد دفع جماعة من فقهاء الصحابة إلى الردّ على الطاعنين وبيان خطئهم من خلال تعليل وتوجيه هذه القراءة.

سأذكر ها هنا نماذج من توجيهات الصحابة رضي الله عنهم خلال هذه المرحلة:

- روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (68هـ) أنه كان يقرأ : ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ {وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثمّ نكسوها لحما}[2][البقرة: 259] بالراء المهملة[3]، واحتجّ لقراءته بقوله الله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ {ثمّ إذا شاء انشره}[عبس: 22] اختيارا منه لمعنى الإحياء والبعث، وقد

---

1 حقيقة الاختيار زمن الصحابة رضي الله عنهم وموضعها من قراءاتهم نتطرق إليها في باب تاريخ علم القراءات.

2 أكتب الآيات بالرسم القرآني معتمدا على برنامج مصحف المدينة المنورة للنشر الحاسوبي على الأصل ثمّ أردفها بإعادة كتابتها ببرنامج الوورد ؛ لأنّ الحواسيب التي لا تستعمل برنامج مصحف المدينة للنشر الحسسوبي لا تقرأ الايات بالرسم العثماني... ذكرتُ هذا حتى لا يظنّ القاري أنّ اعتماد الكتابتين تسوية لكتابة القرآن بالرسم العثماني والرسم الإملائي.

3 والقراءتان بالراء والزاي متواترتان، قرأ ابن عامر الشامي والكوفيون بالزاي وباقي العشرة بالراء، انظر النشر 2\231.

جرى جماعة من الموجّهين على هذا النهج وأكثروا من توجيه قراءة بعض الآيات بمناسبتها وموافقتها لآيات أخرى، وهو من التوجيه بالنظائر[1] ، ويسميه البعض بتوجيه القرآن بالقرآن، جريا على اصطلاح التفسير، وهي تسمية فيها كثير من التجوز؛ فإذا كان تفسير القرآن بالقرآن جائزا مطلقا، فإنّ توجيه القراءات المختلف فيها لا يصحّ إلاّ بنظيرتها التي لا خلاف فيها.[2]

- اختلفت قراءات الصحابة رضي الله عنهم لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنّهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يردّ باسنا عن القوم المجرمين}[يوسف: 110] فقرأت عائشة رضي الله عنها بالتخفيف {كُذِبوا} وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالتّشديد {كُذِّبوا} والقراءات سبعيتان صحيحتان[3] نُقلت إلينا بالتواتر، فوجّه ابن عباس اختياره بقوله: "كانوا بشرا وتلا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ {حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب}[البقرة: 214] ووجّهت عائشة رضي الله عنها اختيارها بقولها: "هم أتباع الرسل الذين آمنوا وصدقوهم، فطال عليهم البلاءُ، واستأخر عنهم النصرُ، حتى إذا استيأس الرسلُ ممّن كذَّبَهم من قومهم، وظنَّت الرسلُ أن أتباعَهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك."[4]

- وفي قصة عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنّه استشكل قراءة التخفيف في الآية المتقدّمة {كُذِبوا} فأجابته بما تقدّم كالحجة على صحّة وجهها.[5]

---

1 معاني القرآن، يحيى بن يزيد الفراء (207هـــــ) بتحقيق محمد علي النجار وزميله، الدار المصـــرية للتأليف والترجمة القاهرة. الطبعة الأولى (د ت).

2 حتى لا يقع الموجه في عيب الدور، عندما يوجه مختلف فيه بمختلف فيه من جنسه ...

3 قرأ الكوفيون وأبو جعفر بالتخفيف، وباقي العشرة بالتشديد انظر النشر: 2\296.

4 انظر : جامع البيان للطبري (أحمد شاكر) 16\297...فتح القدير للشوكاني 3\74.

5 صحيح البخاري، كتاب التفسير باب قوله {حتى إذا استيأس الرسلُ} [يوسف 110] 6\77.

التوجيه على عهد التابعين والأئمة

بقيت توجيهات القراءات متواصلة في شكل ملاحظات منفصلة متفرّقة من بعض التابعين والأئمة القراء، يلجئون إليها عند بيان أو تعليل وجه اختيارهم لقراءة دون أخرى، أو عند الردّ على طاعن أو متشكّكٍ فيها، أو عند الإجابة على مستفسر مستفهم عنها... ولم تكن هذه التوجيهات تزيد على تناول الآية والآيتين، ولم تستوعب قراءة بعينها.

المرحلة الثانية: التوجيه قبل استقلاله بالتأليف.

ابتداء من القرن الثاني توسّع العلماء في الاشتغال بتوجيه القراءات، وقد تمثل هذا الاشتغال في مظهرين اثنين:

- الاشتغال العملي من خلال بروز ظاهرة الاختيار ؛ فاختيار القارئ لوجه دون آخر لا بدّ أن يستند فيه على علّة أوجبت هذا الاختيار أو قدّمته وفضّلته، سواء بيّن هذه العلّة وذكرها أو احتفظ بها لنفسه .
- الاشتغال النظري: من خلال جهود علماء اللغة والقراءات والتفسير الذين أمدّوا الدرس التوجيهي بمباحث ومسائل ألحقوها بعلومهم وفنّهم ودوّنوها في مصادرهم ومصنفاتهم.

أوّلا: أهمّ العوامل والأسباب وراء نشأة علم توجيه القراءات

لعلّ أهمّ الأسباب والدواعي إلى الاشتغال بتوجيه القراءات خلال هذه المرحلة ومن ثمّ بداية التصنيف فيه ثلاثة هي:

- انتشار ظاهرة الاختيار.
- الطعن والتشكيك في بعض القراءات.
- البدايات الأولى لأقيسة العربية ونحوها.

1. ظاهرة الاختيار وأثرها في التوجيه

كلمة موجزة عن ظاهرة الاختيار:

لا يمكن للدارس لتاريخ القراءات أن يتجاوز ظاهرة الاختيار، دون أن يقف عندها مليّاً يبحث في حقيقتها وفي أسبابها وتاريخها وأحكامها ...؛ ذلك أنّها تمثل نقطة محورية -أقلُّ ما تفيده – تحوّل نسبة قراءة القرآن الكريم من الصحابة رضي الله عنهم إلى قراء الأمصار وأئمة الإقراء...هذا إضافة إلى كونها الظاهرة التي ضبطت القراءات وقعّدت لها بما اعتمدته أمّة الإسلام من أوّل بداية هذه الظاهرة وإلى يومنا هذا ...

لن نتناول هذه الظاهرة ها هنا بالدراسة المستقصية والمفصّلة... بل سنتناولها — فقط- من جهة كونها إحدى أهم روافد وموارد علم توجيه القراءات...

تعريفها: من حيث كيفيتها هي"انتقاء القارئ الضابط العارف باللغة طريقة خاصة به في القراءة منسوبة إليه مستلة من بين ما روى عن شيوخه لعلّة ما" وهي من حيث ماهيتها "ما أضيف إلى القارئ من وجوه القراءة إضافة انتقاء واصطفاء لا إضافة [اختلاق]"

شروطها: يمكننا أن نفرّق بين نوعين من الشروط، أوّلها شروط عامة، هي التي لا يصحّ الاختيار إلاّ بها، وشروط خاصة، هي شروط زائدة على الواجب التزمها بعض القراء في اختياراتهم.

الشروط العامة:

اختلفوا في تحديد هذه الشروط، وقد جعلها الجمهور ثلاثا:

1. صحّة النقل.
2. موافقة رسم المصحف ولو احتمالا.
3. موافقة اللغة بوجه من أوجهها.

قال الإمام أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري (478هـ): "ثمّ كلّ من اختار حرفا من المقبولين من الأئمة المشهورين بالسنّة والاقتداء بمن قد مضى من علماء الشريعة راعى في اختياره الرواية أوّلاً، ثمّ موافقة المصحف الإمام ثانيا، ثمّ

العربية ثالثا. فمن لم يراعِ الأشياء الثلاثة في اختياره لم يُقْبَلِ اختياره، ولم يَتَداولْهُ أهل السنّة والجماعة."[1]

وزاد أبو عبد الله محمد بن علي القيجاطي (811هـ) شرطا رابعا هو:

4. "أن يكون معناها جاريا على ما تقتضيه أصول الشريعة بإطلاق، بحيث لا تضادها، ومطابقا لأسلوب الآية المقروءة بتلك القراءة حتى لا تنافيها"[2] وقال معلقا على عدم ذكر الأئمة القراء لهذا الشرط الرابع: "قلتُ: ولم يذكر هؤلاء الشرط الرابع، وهو ممّا نبّه عليه السلف وأهل العلم بالقرآن والحديث."[3]

ولم يزد بعضهم[4] على اشتراط :

1. ثبوتها ثبوتا يفيد العلم
2. موافقتها لرسم المصحف

شروط الخاصة:

وهي شروط تختلف من مختار لآخر، فقد اشترط الإمام نافع عليه رحمة الله أن لا تخرج قراءته عن رواية أهل المدينة، ومن شروط عاصم اعتماد قراءتي ابن مسعود وعلي رضي الله عنهما دون سواهما من الصحابة رضي الله عنهما والفصل بينهما في إقرائه... وغيرها من الشروط التي عُلِمت بنصٍّ من القارئ المختار أو بتتبع اختياره واستقرائه.

---

1 الجامع في القراءات، المعروف بسوق العروس مخطوطة مكتبة برلين برقم PM 403 593 (اللوحة 2\و) وانظر: منجد المقرئين لابن الجزري دار الكتب العلمية بيروت ص15 وغيرها...النشر في القراءات العشر 1\13...

2 مسائل في القراءات، أبو عبد الله محمد بن علي القيجاطي (811هـ) تحقيق د.بنيونس الزاكي نشر الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الإمام أبي عمرو الداني للدراسات والبحوث القرآنية المتخصصة.دار الأمان الرباط 1438هـ 2017م. ص255.

3 مسائل في القراءات ص257.

4 الأستاذ أمين بن إدريس بن عبد الرحمن فلاتة في رسالته للماجستير: الاختيار عند القراء مفهومه مراحله وأثره في القراءات، جامعة أم القرى 1421هـ انظر: ملخص الرسالة.

ملازمة التوجيه لعملية الاختيار

إنّ التوجيه ملازم للاختيار، من حيث أنّ الاختيار يُستبعد أن يكون هكذا اعتباطا، سبهللا وعفو الخاطر، بل لا بدّ أن يعتمد القارئُ المختارُ أوجها روائية، لغوية، مصحفية، دلالية، أو غيرها... يسند ويعلّل بها اختياره، وهذه الأوجه هي التي يبحث عنها علم توجيه القراءات...

وإذا كان الاختيارُ زمنَ أئمةِ الأمصار اختيارا من مجموع الروايات القرآنية التي أسندوها عن أئمتهم، فإنّ نوعا من الاختيار ظهر بعدهم هو الاختيار من مجموع اختيارات القراء، وقد اشتهر من الذين اعتمدوا هذا النوع من الاختيار الإمام أبو بكر بن مجاهد في اختياره للقراء السبعة دون سواهم، وممّا يستدل به على ملازمة التوجيه للاختيار أنّه رحمه الله كان ينوي بناء كتابه على بيان أوجه اختياراتهم في كلّ حرف يذكره، وهذا الذي فعله في أوّل الكتاب في سورة الفاتحة عند ذكره لاختلافهم في {ملك، صراط، الصراط، عليهم، غير[1]} ثمّ قال بعد ذلك معلّلا ترك التوجيه: "استطلتُ ذكر العِلَلِ بعد هذه السورة وكرهتُ أن يثقل الكتاب فأمسكتُ عن ذلك وأخبرتُ بالقراءة مجرَّدة."[2]

والخلاصة أنّ الاختيار يعدُّ أحد أهمّ موارد وروافد علم توجيه القراءات، من حيث أنّ الاختيار قائم على علّةٍ ولا بدّ، ومجموع هذه الحجج والعلل هي علم توجيه القراءات. فالاختيار في الوقت ذاته مصدر لعلم التوجيه وسبب له.

2. ظهور علوم العربية وأثرها في التوجيه

لا يمكن تعلم لغة من اللغات إلاّ وفق قواعد وأقيسة تجمع وتنظّم أكثر استعمالاتها، وهذا الذي انطلق منه نحاة البصرة في تحديد قياساتهم وقواعدهم، وقد كان القرآن الكريم أوّل مصادرِهم، وفي قراءاته المختلفة توسّعٌ استغلّه علماء العربية في تثبيت قواعدهم من خلال اختيار ما يتماشى وهذه القواعد ؛ ومن هنا وجدنا هذا التوسّع في توجيه القراءات عند علماء اللغة حتى أوشكوا أن يختصوا

---

1 كتاب السبعة 105....

2 كتاب السبعة ص112.

بهذا العلم دون غيرهم، وحتى أصبح أكثر توجيه القراءات على مناهجهم ومذاهبهم اللغوية...

فهم عندما يجتهدون في توجيه القراءات أكثرهم يسعى لخدمة قواعدهم وأقيستهم ليس إلاّ، ولا يمكن قلب الوضع فيظنّ الظانّ أنّ التوجيه يستدلّ به أهلُ اللغة بأقيستهم على صحّة أصل القراءة. إنّ هذا المنطق المقلوب يسعى إلى تحكيم الفرع في الأصل. إنّ القراءة إذا ثبتت قرآنيتُها فهي حجةٌ على أهل العربية واللغة قبل أن تكون حجةً لهم... وإنّ القرآن هو أصل اللغة وأوّلُ مصادرها وأوثقُها ومن طعن في شيء من القراءات انطلاقا من قياسٍ أحدثه أهل اللغة فهو كمن يريد المحافظة على بناء شامخ أُعجِب به من خلال هدمِ أساسه الذي زعم لا يناسب إتقان وجمال هذا البناء الشامخ...

ثمّ إنّ كثيرا من أهل اللغة بحكم معرفتهم الواسعة بوجوه العربية ومختلف لهجاتها قد اجتهدوا في بيان أوجه اختيار القراء لهذه القراءات من خلال بيان أصلها اللغوي، وربّما قد يدفع حبُّ القرآن والانتصارُ له بعضَ أهل اللغة إلى الردّ على الطاعنين فيه من الملحدين ومن جهلة المفتونين بأقيسة اللغة من خلال بيان صحة هذه الاختيارات – من جهة موافقتها لأوجه اللغة العربية لا من جهة ثبوت أصلها – .

والخلاصة أنّ ظهور علم العربية كان له دور بارز في إمداد علم توجيه القراءات وسببا مهمّا في نشأته ؛ وذلك بتوسعهم في بحث توجيه القراءات للاستدلال بها على قياساتهم ، وباستغلال سعة علمهم بالعربية في بيان أوجه وعلل هذه الاختيارات التي قد يجهلها كثير من النّاس. وبردّهم على الطاعنين في القراءات، وهذا العنصر الأخير هو الذي يمثل الرافد الثالث الذي سنذكره الآن.

3. الطعن في القراءات وأثره في ظهور التوجيه:

يرى جماعة من المهتمين بعلم توجيه القراءات والدارسين له أنّ علم توجيه القراءات إنّما ظهر لأجل "الدفاع عن القراءات القرآنية والانتصار لها ببيان نكتها وعللّها وإثبات صحّتها، وحجّيتها والكشف عن مختلف وجوه إعجازها.[1]

وفي اصطلاحاتهم وتسمياتهم لهذا العلم بالحجج والاحتجاج والانتصار ما يشير إلى ذلك، وقد ظهر الطعن في القراءات من جهات عدّة، أوّلُها من خارج دائرة الإسلام حيث واصل الزنادقة والشعوبيون وأهل الكتاب الطعن في القرآن الكريم من حيث ثبوتُه، وتعارضُ آياته، ودلالاتُه، ورسمُه...

وكذا من داخل دائرة الإسلام، وهؤلاء لأنّهم لا يستطيعون الطعن في أصل القرآن الكريم، وجهوا سهامهم للقراءات القرآنية وطعنوا فيها من حيثيات عدّة وجوانب شتّى أهمّها: أصل عربيتها، وفصاحتها، وموافقتها لأقيسة النحاة...إلخ

وقد انتدب جماعة من علماء اللغة والقراءات إلى الردّ على هؤلاء من خلال توجيه القراءات بما يبطل هذه الدعاوى ويضحدها، وهذه الردود هي التي كوّنت إحدى أهم موارد علم توجيه القراءات ومصادره.

ثانيا: نماذج من اشتغال القراء بتوجيه القراءات خلال هذه المرحلة

اختار عاصم الجحدري (128هـ) قراءة {مَلِكِ يوم الدين} بالقصر، ويحتج على من قرأها {مالك} بالمدّ، بقوله: يلزمه أن يقرأ: {أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَالِكِ النَّاسِ}.[2]

قرأ عيسى بن عمر (149هـ): {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} بنصب الطير، ويقول: هو على النداء.[3]

---

1 بدر الدين عبد الكريم أحمد ص32

2 المحتسب، قسم الدراسة 1\8

3 المرجع نفسه.

وروي عن الكسائي أنّه قرأ أمام حمزة بن حبيب: {فَأَكَلَهُ الذِّيبُ} بغير همز، فقال حمزة: "الذئب" بالهمزة، فقال الكسائي: وكذلك أَهمز الحوت {فالتقمه الْحُؤت}؟ قال: لا، قال: فلِمَ همزت {الذئب} ولم تهمز {الحوت}، وهذا {فأكله الذئب}، وهذا {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ}؟ فرفع حمزة بصره إلى خلاد الأحول.... فتقدم إليه في جماعة من أهل المجلس فناظروه فلم يصنعوا شيئًا، فقالوا: أفدنا رحمك الله!

فقال لهم الكسائي: ... تقول إذا نسبت الرجل إلى الذئب: قد استذأَب الرجل، ولو قلت: قد استذاب بغير همز لكنت إنما نسبته إلى الْهُزال، تقول: قد استذاب الرجل إذا استذاب شحمه بغير همز، فإذا نسبته إلى الحوت تقول: قد استحات الرجل؛ أي: كثر أكله؛ لأنّ الحوت يأكل كثيرًا، ولا يجوز فيه الهمز، فلهذه العلة هُمز الذئب ولم يهمز الحوت.

وفيه معنى آخر: لا يسقط الهمز من مفرده ولا من جمعه، وأنشدهم:

أيها الذئب وابنه وأبوه ... أنت عندي من أذؤب ضاريات[1]

ثالثا: توجيه القراءات كمباحث ومسائل متفرقة في مصنفات مختلف العلوم والفنون

يرى الأستاذ غانم قدوري الحمد أنّ بداية التأليف في توجيه القراءات بدأ أوّل ما بدأ في كتب (معاني القرآن) وأنّ هذه الكتب تناولت مواضع عدّة من علوم القرآن منها توجيه القراءات.

والناظر في المصنفات القديمة يجد أنّ الكتابة في توجيه القراءات توزّعت على علوم شتّى ومصنفات عدّة أهمّها كتب علوم اللغة، والتفسير، والقراءات...

وسأكتفي ها هنا بذكر نماذج من بعض الكتب في مختلف العلوم والفنون التي أسهمت في نشأة علم توجيه القراءات من خلال مسائله ومباحثه التي صنّفتها

كتب علوم اللغة:

1 إنباه الرواة: 2/ 258-259

العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)

للخليل اجتهادات كثيرة ومشاركات عديدة في توجيه القراءات بعضها ممّا رواه عنه تلميذه سيبويه في الكتاب كقوله: "وسألتُ الخليل عن قوله جلّ ذكره {وأنّ هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقونِ} فقال: إنما هو على حذف اللام، كأنّه قال: ولأنّ هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقونِ، وقال: ونظيرها {لإيلاف قريش} ؛ لأنّه إنّما هو: لذلك {فليعبدوا} فإن حذفت اللام من أنّ فهو نصب، كما أنّك لو حذفت اللام من {لإيلاف} كان نصباً، هذا قول الخليل، ولو قرؤوها (وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة) كان جيّداً، وقد قرئ، ولو قلت: جئتك إنّك تحبُّ المعروف، مبتدأ، كان جيّداً..."[1]

وأكثر توجيهات الخليل تجدها في طيات معجم العين، وللدكتور عبد الله بن عيسى المسملي الأستاذ المساعد بقسم اللغة والنحو والصرف كلّية اللغة العربية بجامعة أمّ القرى مقال بعنوان: القراءات القرآنية وتوجيهها في كتاب العين جمع ودراسة. نشر بمجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية العدد السابع جمادى الآخرة 1430هـ ابتداء من الصفحة 215 إلى الصفحة 288. وقد اعتمد الخليل في توجيهه للقراءات على ثلاثة أصول هي: لغات العرب، تفسير السلف، والقياس النحوي والصرفي.[2]

الكتاب لسيبويه 180هـ:

أكثر سيبويه من توجيه القراءات في كتابه بما يتناسب مع قواعده وللاحتجاج بها على أقيسته، فمن ذلك:

قوله في باب الفاء: "وقال عز وجل: {فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ} فارتفعت لأنه لم يخبر عن الملَكين أنهما قالا: لا تكفر فيتعملون؛ ليجعلا كفره سببًا لتعليم غيره؛ ولكنه على كفروا فيتعلمون، ومثله: {كُنْ فَيَكُونُ} ، كأنه قال: إنما أمرنا ذاك فيكون".[3]

معاني القرآن

---

1 الكتاب 3\126-127

2 القراءات القرآنية وتوجيهها في كتاب العين جمع ودراسة ص130-140.

3 انظر نماذج من توجيهات سيبويه في الكتاب 1\51-283-432، 2\108، 3\140...

كمعاني القرآن للفراء (207هـ) والأخفش الأوسط (210هـ) والزجاج (211هـ)، فهذه الكتب التي اهتمّت بتفسير القرآن تفسيرا لغويا والتي تتبّعت القراءات القرآنية وأطنبت في توجيهها وتعليلها والاحتجاج لها حتى عدّها بعض المحقّقين[1] المصدر الأوّل لعلم توجيه القراءات قبل استقلاله بالتدوين.

كتب التفسير:

الإمام ابن جرير الطبري (310هـ)

من أشهر المفسرين وأكثرهم اشتغالا بتوجيه القراءات الإمام ابن جرير الطبري، ولعلّ أهمّ سبب وراء هذا الاهتمام والاشتغال الكبير بتوجيه القراءات أنّه أحد أئمة الإقراء والاختيار فهو صاحب كتاب ضخم في القراءات . قال ياقوت رحمه الله : "وله في القراءات كتاب جليل كبير رأيته في ثماني عشرة مجلدة إلا أنه بخطوط كبار ذكر فيها جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور" اهـ[2]

وقد كان في كتابه (جامع البيان) يذكر مختلف القراءات ويرجّح بينها ويختار من خلال توجيهاته وتعليلاتها، وكثيرا ما كان يعتذر عن البسط والتوسع محيلا على كتابه الذي ألّفه في القراءات.

وما فعله الإمام ابن جرير الطبري قد سبقه إليه مفسرو الصحابة والتابعين وتابعيهم، فإنّ الاستعانة بالقراءات في التفسير كان دأبهم ومنهجهم والوقوف على توجيهها من أهمّ وسائل الوصول إلى مراد الله تعالى من الآية ... يمكننا التأكّد من ذلك من خلال تتبع تفسير مجاهد (104هـ) ومقاتل بن سليمان (150هـ) وسفيان الثوري (161هـ) وابن وهب (197هـ) ويحيى بن سلام (200هـ) والإمام الشافعي (204هـ)... وغيرهم من قدماء المفسرين ممّن وصلت إلينا تفسيراتهم فإنّها لم تعدم من توجيه القراءات وتعليلها والاحتجاج لها...

كتب القراءات:

كتب القراءات الأولى اعتمدت على الاختيار، والاختيار كما تقدّم معنا مبنيّ على التوجيه لهذا كثر في كتب المتقدمين تعليل القراءات وتوجيهها، بينما اكتفى المتأخرون بذكر الخلاف

1 تقدّم قول الأستاذ غانم قدوري الحمد.

2 معجم الأدباء 6\2444.

وبيان القراءة دون التعرض لتوجيهها وتعليلها في الغالب الأعمّ... ولعلّ من أهمّ الكتب التي يتوقّع أنّها قد نهجت هذا النهج وأفادت الدرس التوجيهي بما حوته من مباحث ومسائل في توجيه وتعليل القراءات كتاب أبي عبيد القاسم بن سلّام (224هـ) في القراءات وقد حوى على خمسة وعشرين قارئا، وكتاب أحمد بن جبير بن محمد الكوفي نزيل أنطاكيا (258هـ) جمع فيه خمسة قراء حيث جعل لكلّ مصر قارئا. وكتاب القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون (282هـ) جمع فيه عشرين قارئا. وقد تقدّم الحديث عن كتاب أبي جعفر الطبري (310هـ) في القراءات وأوردتُ هناك قول ياقوت الحموي أنّه ذكر فيه التعليل والتوجيه.

السبعة لأبي بكر بن مجاهد (324هـ)

إنّ ابن مجاهد في كتابه السبعة قد أفاد الدرس التوجيهي من جهتين اثنتين:

الأولى : شروعه في توجيه اختيارات القراء السبعة، فقد بدأ ذكر اختلافهم في سورة الفاتحة مقرونا بالتوجيه والتعليل ، لكنّه للأسف الشديد رأى في ذلك تطويلا على القارئ لا يتناسب مع غاية وهدف الكتاب الذي أراده أن يكون معلما لضبط وحفظ اختلاف قراء الأمصار السبعة، فعدل عن التوجيه وتركه.

الثاني: توجيهه لاختياره سبعة قراء دون غيرهم، فهذا نوع من الاختيار يحتاج بدوره إلى التوجيه والتعليل وهذا الذي ذكره وبيّن بعضه في مقدّمة كتابه، ولعلّ أهم المعالم التي بنى عليها ابن مجاهد اختياره للسبعة ما يلي:

أصحاب هذه القراءات أئمة متخصصون. عارفون بلغة العرب ولهجاتها... محيطون بروايات القرآن الكريم، وبحال أسانيدها ...هذه القراءات هي قراءات العامة المستفيضة... وهي قراءات كبريات الأمصار الإسلامية.

المرحلة الثالثة: استقلال توجيه القراءات بالتصنيف.

اختلفوا في تحديد أوّل من استقلّ بكتاب خاص في توجيه القراءات إلى أقوال عدّة أهمّها:

- أبو العباس المبرّد (285هـ) يرى الأستاذ غانم قدوري الحمد أنّ أوّل مصَنَّفٍ خاص في علم توجيه القراءات هو: كتاب (احتجاج القراءات) لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد.
- هارون بن موسى الأعور (200هـ) ذكر أبو حاتم السجستاني أنّه كان أوّل من سمع بالبصرة وجوه القراءات، وألَّفها، وتتبع الشاذ منها، وبحث عن إسناده. عدّه الكبيسي في دراسته لكتاب الموضّح أوّل من ألّف في توجيه القراءات، وكذلك فعل كلٌّ من علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شلبي في تحقيقهما لمحتسب ابن جني.[1]
- الإمام الكسائي (189هـ). قيل لعبد الله بن المبارك (ت:181هـ) : إن الكسائي قد وضع كتابا في إعراب القرآن مثل : " الحمد لله " بضم الدال ، و" الحمد لله " بنصب الدال ، و " الحمد لله " بخفض الدال فمن رفع حجته كذا ، ومن نصب حجته كذا ، ومن نصب حجته كذا ، ومن خفض حجته كذا فيكف ترى ؟
  قال ابن المبارك : إن كانت هذه القراءة قرأ بها قوم من السلف من القراء فالتمس الكسائي المخرج لقراءتهم فلا بأس به وإن كانت قراءة لم يقرأ بها أحد من السلف من القراء فاحتملها على الخروج من النحو ، فأكرهه ...
  ثم قال الرواي لابن المبارك : ولكن أخبرك أن الكسائي يقول : إن هذه الوجوه كلها قراءة القراء من السلف اهـ[2]

الأستاذ فتحي بودفلة
fethinew@gmail.com

1 المحتسب، قسم الدراسة ص9.

2 الجامع لأخلاق الراواي وآداب السامع 197/2